

مشكلة التقنية وضرورة إصلاح الإرادة العلمية والاجتماعية

عند برتراند راسل

Problem of technology and the need to reform the scientific and social will through Bertrand Russell

ط. د / سفيان بقاش¹، مخبر الدراسات الفلسفية والأكسيولوجية (جامعة الجزائر 2)

sofianebekkache1000@gmail.com

26-05-2020	تاريخ القبول	17-09-2019	تاريخ الاستلام
------------	--------------	------------	----------------

ملخص البحث:

تزايدت أهمية التقنية وتعاضمت أهميتها في عالمنا المعاصر، لكن هذا النجاح تحول إلى رعب يخيف البشرية، وأمام واقع فصل الأخلاق عن العلم والحياة، يجب إصلاح الإرادة العلمية بجعلها أخلاقية وإنسانية، حتى يكون تجليها الاجتماعي إيجابياً؛ فتكون إرادة ضد الحرب وخدمة للسلام العالمي، إنَّ ذلك يعد خطوة ضرورية لإنقاذ البشرية من جحيم واقع بائس ولإنقاذ العقل العلمي من خطورة تورطه في الحروب وجشع السياسيين.

إنَّ الهدف من هذه الدراسة هو البحث في التحول الذي نشأ في العالم بعد تطور التقنية العلمية، والتي انعكست على واقع الإنسان المعيش، ونتيجة لهذا الوضع فقد انتهت هذه الدراسة إلى حتمية نقد العلم ونتائجه للنهوض به وبالحضارة المعاصرة، وجوهر هذا الإصلاح هو العودة إلى دائرة القيم التي تضبط كل ممارسة إنسانية.

الكلمات المفتاحية: برتراند راسل، الأخلاق، التقنية، الإنسان، الإصلاح

Abstract:

The importance of technology has increased and its importance has increased in our contemporary world, but this success turned into a terror that frightens humanity, and in front of the reality of separating morality from science and life, the scientific will must be reformed by making it ethical and human, so that its social manifestation is positive; so it is a will against war and a servant to world peace. This is a necessary step to save humanity from the hell of a miserable reality and to save the scientific mind from the danger of its involvement in wars and the greed of politicians.

The aim of this study is to research the transformation that arose in the world after the development of scientific technology, which was reflected on the reality of the human being, and as a result of this situation, this study ended in the inevitability of criticizing science and its results for the advancement and contemporary civilization, and the essence of this reform is to return to a circle The values that govern every human practice.

keywords: Bertrand Russell, Ethics, Technology, Human, Reform.

مقدمة:

لم يكن اهتمام الفلسفة المعاصرة بموضوع التقنية اهتماما عثيا، وإنّ مساحة هذا الاهتمام تتزايد بشكل يومي أمام تعاضلها وانعكاساتها على الواقع الاجتماعي الذي أدى إلى تشيؤ الإنسان. ومع هذا الوضع بات من الضروري إصلاح الإرادة العلمية لإصلاح المجتمع العالمي، ولذلك فإننا نجد الفلسفة المعاصرة تتخذ من فلسفة العلوم والتقنية مبحثاً من مباحثها الأساسية حيث كان أحد الملامح التي ميّزت الشكل الجديد للفكر المعاصر.

على ضوء المنهج التحليلي فإنّ الغرض من هذه الورقة البحثية هو محاولة فهم الواقع الذي آل إليه المجتمع الإنساني بعد هذا التطور وبعد سيادة العقل العلمي، وهو واقع يطرح مشكلات إنسانية وأزمات أخلاقية معها صار العلم فارغا من القيم، ومن هنا ونظرا لانعكاسات هذا الوضع بالسلب على المجتمعات الإنسانية، فإنه من الواجب حسب راسل البحث عن آليات لإصلاح إرادة العلم ولإرادة المجتمع الإنساني ككل في العالم حتى يكون العلم أداة تشييد لا تهديد.

لقد أتى على الإنسان زمان ارتبط فيه العلم وتقنياته بسلوكات خارجة عن الصواب وخارجة عن الحكمة الإنسانية، فصارت وسائل تمارس أعنف أشكال القمع والاستبداد؛ والفتك بأعداد هائلة من الضحايا في لحظة، ومن منطلق هذه التحولات: كيف انحرفت التقنية من وظيفة خدمة الإنسان إلى وظيفة التدمير؟ ما السبيل الذي يجعل من الإرادة العلمية تتجه بدلا من التهديد إلى التشييد والإصلاح؟

1. الانحراف العلمي ومحاكمة الفكر:

لقد كانت آمال الناس حول العلم أنه بإمكانه تقديم معجزة في الإصلاح الاجتماعي على المستوى الكوني بنشر السلام ومنع الحروب بما أنه قد صنع معجزة التقنية، لكن أمسى هذا الأمل مع اشتداد قسوة الحروب وتحول الموت إلى أبشع صوره مع تطور التقنية رعبا حقيقيا يهدد الوجود البشري في كل لحظة، وعليه ألا يدعونا ذلك إلى إعادة النظر في وظيفة التقنية؟ وألا يدعونا أيضا إلى ضرورة العودة إلى بدايات الانحراف العلمي عن مسار الإصلاح وبداية مسار التهديد بالخراب؟ أليس من الضروري أن نقف بأفكارنا لمحاكمتها بغرض إعادة تأهيلها؟

1. 1 . التقنية وتشويه المسار الإنساني للعلم:

إنّ ما يتأسف عليه برتراند راسل في كتابه "السلطة والفرد" هو أن العلم الذي كان يعتقد أنه أداة للتقدم وبناء الحضارات العظمى قد وضع بين أيدينا أشنع الآلات وأكثرها تدميرية لإرضاء غرائز الإنسان العدوانية، فلم تخدم طموح الشرفاء في التقدم بقدر ما خدمت من يريد اللعب بحياة الملايين من البشر وتدميرهم، وهذا ما فعله أيضا حين تم تقسيم الناس إلى قبائل تقسيما لا قيمة فيه بأي شكل من الأشكال وذلك بذريعة العلم، ومع كلّ هذه الأوضاع فإنه من جانب آخر هناك إقبال قليل على فعل السلام، وما يدل على ذلك هو قلة المهتمين بهذا الموضوع وقلة المهتمين بطرح آلياته بجدية أكبر تستوعب الواقع المرعب الذي آل إليه العلم والعالم، والأكثر أسفا أيضا فوق كل هذا أن قدرة العلم التدميرية قد فاقت قدرته الإبداعية (Russell, 2005, P19).

إنّ هذا الأسف الذي يعبر عنه راسل كان نتيجة احتكاكه بحربين عالميتين مدمرتين، أين كان العلم بآخر صيحاته من الأسلحة الفتاكة أحد أهم وسائلها المميتة، وهذه النتيجة لم يكن راسل يتمنى أن تصل إليها البشرية في يوم من الأيام، أين تحول الضمير العلمي إلى ضمير آثم، معياره القمع والخراب بدل الإبداع والجمال مفرغا ذاته من قيم الحسن والخير والصواب، ومع هذا الوضع قد آن للعلم أن يراجع نفسه وأن يصحّح طريقه الذي تم تغييره نتيجة إدارة بائسة.

لقد تشوه المسار الإصلاحي للعلم في اللحظة التي صار لا ينظر فيها إليه على أنه إبداع، وهي لحظة طغيان النزعة التدميرية فيه، وقد تم هذا بمباركة رجال السياسة، ففائدة العلم أضحت منح القوة لإخافة العدو، أكثر من منح السعادة للبشر. وهي لحظة انفصال الأخلاق عن العلم، فولدت تقنية بلا أخلاق.

إن فلسفة التقنية بالأصل لها منظوران أحدهما نظري والآخر أخلاقي - يعتبر جون ديوي بالنسبة إلى راسل خير فيلسوف قام بتطوير الفلسفة التقنية القائمة على تغيير العالم حسب الرؤية الماركسية-، ومن منظور آخر فإن الفلسفات تعمل على تحليل مفهوم الحقيقة، وتقوم باستبدال الحقيقة بـ"المنفعة"، ثم إنّ هذا النافع ليس مستقرّا على طول الزمان، فما قد يكون نافعا لفترة زمنية قد يتحول إلى مضر في فترة زمنية أخرى، ونفس الأمر كذلك يقال عن الصحة والفساد، أو الصدق والكذب. (راسل، 2008، ص115).

إنَّ انحراف التقنية العلمية كان بانفصال هذين المنظورين عن بعضهما والتخلي عن المنظور الأخلاقي اكتفاء بالنظري وتحويله مباشرة إلى العملي والنفعي دون المرور إلى قرار القيم الأخلاقية، وهذه الأخيرة بناء عليها تكتسب الأنشطة العلمية شرعيتها في الواقع، فالتوافق معها خير، وفي حال التعارض معها كان التوظيف العلمي في هذه الحالة شراً، ليس من السيئ أن يهتم الإنسان بما يجلب له منفعة، لكن السيئ هو غياب رقابة القيم الأخلاقية ونحن نغير العالم من خلال ما أتاحه الفكر العلمي.

وقياساً إلى ما قيل فإنه من المتعارف عليه أنَّ الحرب دمار وكل الناس مهما بسُطت عقولهم فهم يجمعون على بشاعة الحرب، وهي أكثر العراquil التي تهدد مشاريع المصلحين العظماء في العالم، لكن لظروف سياسية قد يرى البعض أن الحرب فيها خير، كما هي الحروب المدمرة بدعوى محاربة الإرهاب في مناطق من العالم أو التدخل في شؤون دول بدعوى محاربة الديكتاتورية والاستبداد، ويرى من يقومون بهذا العمل أنه عمل بطولي ينقذون به الإنسانية من تلك الشرور رغم ما يترافق معها من مجازر ومذابح. إنَّ لغتهم التي تتلاعب بمشاعر الناس في خطاباتهم السياسية لها دور كبير في تغطية بشاعاتهم وتُري الناس جهنم التي صنعوها على أنها جنة، وهؤلاء هم أبشع المتطفلين الذين يدعون أنهم يصلحون مجتمعات العالم في حين أنهم يقيمون خرابها، والأسوأ في هذا أنهم صاروا يتحكمون حتى في إرادة العلم لإرضاء غطرستهم. لكن قد يقول قائل منهم: أليس الفلاسفة هم الذين مهدوا لما آل إليه وضع الإرادة العلمية وانحراف التقنية؟ أليس هناك لحظات فلسفية تتحمل جزء من هذه المسؤولية التي تفاقمت سوء على الناس في كل العالم؟

2.1. محاكمة راسل للفلسفة والبحث عن جذور الانحراف العلمي / الفلسفي:

إجابة على آخر سؤال في المطلب السابق من بحثنا، فإن راسل يبحث في تاريخ الفلسفة عن لحظات يرى فيها رؤى مهدت لهذا الوضع وكانت أهمها اللحظة الميكافيلية وهذا ما أشار إليه أثناء حديثه عن تاريخ الفلسفة الغربية: ويناقش فيها كتاب الأمير الذي فيه كان ميكافيل يعرض وجهة نظر أخلاقية في إطار علاقتها بالحاكم، فهؤلاء من وجهة نظره يمكنهم الاستغناء عن المعايير الأخلاقية ما لم تتطلب المصلحة العامة ذلك، بل وإنه في كثير من المواقف على الحاكم أن يتخلى عن

الأخلاق ملزما، وفي نفس الوقت عليه أن يبدو بشكل فاضل أمام رعيته، وعليه فلا يضمن الحاكم حكمه إلا إذا سار وفق هذه الازدواجية (راسل، 1983، ص26).

قد لا يقصد راسل أن بداية انفصال الأخلاق عن التنظير لدى الفلاسفة وعن العمل السياسي واعتبارها مجرد أمر هامشي قد بدأ مع مكيافيل، لكن هذا الأخير يتحمل قدرا من المسؤولية لأنه أحد الفلاسفة الذين أسهموا في تجرد السياسيين من الاعتبارات الأخلاقية فصاروا لا يرون أمامهم سوى طمع السلطة، وأمام احتقار الأخلاق سيتجرد العلم ويصبح مصدرا للوبال والويلات إذا وضع تحت سلطة لا تفعل القيم الأخلاقية.

إن العمل الذي قام به مكيافيل فلسفيا قد ضرب بالمشاريع الفلسفية التي سبقته من أجل تبجيل الأخلاق والرفع من قيمتها على مستوى الحياة السياسية على وجه الخصوص، لأنهم آمنوا أن الحاكم لا يصلح حال مجتمعه مالم يكن فاضلا، فعلى الرغم من نيته النبيلة في توحيد إيطاليا وعلى الرغم من كون أفكاره تحمل الكثير من أوجه الصواب، إلا أن حديثه فيما يخص الأخلاق هو نوع من الانحرافات الخطيرة على مستوى التفكير الإنساني، وإذا ما اعتاد الإنسان على رؤية الأخلاق كمسألة هامشية لا نستعملها إلا لتبرير أعمالنا التي تتعارض مع مصالح الناس، فإن الصواب من وجه منطقي سيتحول إلى زيف، وستكون محاولة إقناع الناس بما هو مزيف محاولة مشروعة حسب تنظير مكيافيل، وهو قبل كل ذلك قد قضى على كل محاولة جادة لتأسيس علم الأخلاق إلى جانب علم السياسة، وقضى على محاولات جعلهما كتلة واحدة، حيث تكون الإنسانية أمام سياسة أخلاقية، أو أخلاق سياسية، والأكثر من هذا فلقد جعل من محاولة الإصلاح الاجتماعي مع سياسة بعيدة عن الأخلاق نتيجة لمقدمات غير منطقية.

إلى جانب اللحظة المكيافيلية فهناك لحظة أخرى لا تقل شأنًا عنها تجلّت مع أثر البراغماتية والماركسية في تعميق انشقاق الأخلاق عن العلم، إنها فلسفات تتأسس أيضا في جانب آخر على التقنية كتطبيق تدعو إليه إما لتغيير العالم أو لتحصيل المصلحة، فالكهرباء كإحدى مظاهر التقنية لا يهمننا منها إلا فائدتها؛ ولأنها تحقق مصلحة فقد كانت التقنية سببا في الإعجاب الكبير بالعلم لأنه يزودنا بالقوة، إنّها قوة نتحكم بها في الطبيعة. لكن ما حدث للبراغماتية أنها قد افتتنت بالقوة لأنها وسيلة لتحقيق المنافع، فالضعيف لا يصبو دوما إلى مصالحه لافتقاره إلى السبب الذي يجعل

منه قويا للوصول إلى المنفعة، والقوة هي إحدى الرغبات المتعددة والمتنوعة لدى الناس إضافة إلى الكثير من الرغبات الأخرى، كاللذة، وبعض العواطف... الخ، وبهذه القوة يتحقق التغيير وفق التصور الماركسي الذي يدعو إلى تغيير العالم، وبالنسبة إلى العلماء الذين كرسوا أنفسهم لمجد الآلة فإن مؤسسي نظرية المعرفة التقليدية يعدونهم بمثابة رهبان، لأن هؤلاء الرهبان من وجهة نظرهم أغرقوا أنفسهم وتفكيرهم في مجرد التأمل النظري فما حققوا دفعا لواقعهم أي دفعا يجعلهم يمتلكون وسائل القوة وقهر الطبيعة (راسل، 2008، ص 116-117).

صار واضحا أن الفلسفة ليست بريئة من كل هذا، فهي تتحمل نصيبا من الوزر إلى جانب العلم، وبرتراند راسل يشير إلى الفلسفات الماركسية والبراغماتية، التي رمت أول حجر نحو هذه النزعات التدميرية سواء عن سوء فهم أو عن سوء استعمال، ذلك أن هذا هو الأثر الذي أثاره هذا النوع من التفكير بغض النظر عن كيفية ذلك، وهذا ما ينطبق على الولايات المتحدة الأمريكية اليوم، والتي تتبنى النزعة البراغماتية التي ترى الحق فيما يحقق منفعة ومصلحة بغض النظر عن الآثار المترتبة، فالمهم هو امتلاك قوة وسلطة بفضل تلك المنفعة، وهذا النوع هو ما يعتبر حقائق كرس لها كل سياساتها وجهودها العلمية والاقتصادية والسياسية..... الخ.

لتهيئة أفضل الظروف الممكنة في الحياة ولضمان استقرار الإنسان على حال أفضل كان لا بد من وجود إحدى العلوم التي تسهر على تأسيس قواعد للحياة الفاضلة كقوانين عملية، ولذلك كان علم الأخلاق، فالإنسان دوما يجد نفسه أمام مآزق وحيالها عليه أن يتخذ أسرع القرارات وأكثرها صوابا وخيرا، من أجل حياة جيدة وأكثر إصلاحا، ولهذا نجد الفلاسفة وعلى سبيل المثال منهم، ديكارت يتجه إلى تأسيس مجموعة من المبادئ التي قد اتخذها كقوانين لنفسه، فقرر أن يمثل لقوانين بلاده، وأن يظل مؤمنا بعقيدته، وأن يتحكم بنفسه بدل تغيير القدر، وأن يكيف رغباته وفقا لنظام الأشياء (راسل، 1983، ص 60-61).

أمام وضع القدرة التدميرية للعلم التي تتزايد شيطانياتها التي رمت الإنسانية في الجحيم، يعود موضوع الأخلاق إلى الساحة الفكرية - والغرض من ذلك إصلاح أخلاقي للعلم والفلسفة وللإنسان في ممارساته الحياتية بالبحث عن المعايير التي تهدي الناس إلى الخير-، فستتم مناقشة التقنية التي كان للغة العلم دور في صناعتها مناقشة تجعل منها أحد اهتمامات الدراسات الأخلاقية. وهنا يتحتم على فلاسفة

الأخلاق أن يلتزموا التزاما يفرض عليهم ضرورة أخذ مسألة توظيف الآلة بكل جدية شاحدين كل ملكاتهم للتفكير في مصير الإنسانية التي صارت التقنية تهددها محاصرة إياها وقادرة على صناعة الموت في أي لحظة.

بما أن التقنية أو الآلة صارت وسيلة للموت وسببا في خلق الضحايا، فإن هذا يعني أن لها خطرا كبيرا قد لا تتصور حجمه العقول، ولما تحولت إلى وسيلة للقمع وعرقلة طموح الراشدين في إصلاح واقع العالم فإن من يجعل من منطق القوة منهجا فسيستغل التقنية في صناعة الصورة التي يريدها في الواقع؛ ويتحكم به كما يشاء، فيستحوذ على الحقائق ويجبر الناس على الحقيقة التي يريدها هو والتي يريد أن يقتنع الجميع بها، إنه سيجعل من قوته مرادفة للموت؛ وشرا يجب اتقاؤه بالجبين والخضوع.

استحقت الفلسفة والعلم هذه المحاكمة حين قُتلت الأخلاق فيهما، فموت القيم انقلاب في الفلسفة والعلم، وقد تجلى هذا الانقلاب حسيًا في عالمنا، وأثار الفكر المتجلي في ممارسات التقنية وإدارة شؤون الإنسان في العالم المعاصر خير دليل على ذلك، فتشيع الإنسان وانتقلنا من موت القيم إلى موت الإنسان بحد ذاته، إننا بصدد أزمة يعيشها الإنسان؛ ومن التناقض فعلا بعالمنا أن يصاحب تطور العلم تطورا لهذه الأزمة، ففي غسق الظلام من الواجب على الفلسفة أن تظهر من حيث هي صناعة للوعي لتصلح هذا المسار.

2. أزمة الإنسان مع تطور التقنية وغياب الوعي الإصلاحي؛

التاريخ لا ينكر أن البشرية قد تجرعت شرورا جرّاء الاستعمال السيئ للتقنية، وفي كل لحظة استعمال وفي كل تطور مثير للرعب يهب الحكماء في كل بقاع العالم لنشر الوعي بين الناس من أجل السلم ودفعتهم إلى رفض العنف والحرب، ووراء كل دعوة مشروع إصلاحي روحه أمل في السلام العالمي، وهذا ما كان يحمله "راسل" كطموح أراد له يتحقق من خلال الحكومة العالمية التي حلم برؤيتها تتحقق بشكل فعلي على أرض الواقع، لكن أتى يتحقق ذلك في ظل وجود من يعمل على احتكار الحقيقة وغسل أدمغة الناس ليقفوا ضد كل مصلح حكيم؟

1.2. الاستحواذ على الحقيقة و التأسيس لمجتمع ضد الإصلاح؛

إن الاستحواذ على الحقائق يترافق معه نزعات متطرفة سواء كانت في صورة عقيدة دينية أو سياسية يمينية أو يسارية، وهي سبب المآسي التي أصابت القرن العشرين، وإن الفلسفة أمام هذا الوضع وظيفتها معالجة مثل هذه المشكلات، وبما أن الفكر الذي ينتمي إليه "راسل" ذو طبيعة إنجليزية، فإنك ترى البريطانيون قد ينفرون من الفلسفة محترقين إياها -لصالح العلم- على الرغم من أنها تعرف تفوقا من جهة فلاسفتهم، لكن ما يجعل من الفلسفة تحظى باحترام يصفه "راسل" بأنه احترام سلبي هو أنها مهما بلغت بها درجة السوء فهي لا تحمل خطورة (راسل، 2008، ص ص 117-118)، لكن ماذا عن الفكر العلمي فماذا أفرز بتطوره؟ "لقد أفرز "آلة" معها كان تغير كبير.

إن الآلة تحتل الكثير من القيمة العلمية اليوم، لأنها مصدر اكتساب القوة، والفلسفة البراغمية تعطينا أكثر من هذا، ففي مجال الشرطة إذا كان الفرد ممن لهم الحكم في ذلك على سبيل المثال فإنه سيتعالى بإعطائه - من خلال تطور الآلة نتيجة لتطور التقنية - ما يشبه قوة الآلهة في صنع الحقيقة (راسل، 2008، ص 118).

إن الأقوى هو من يصنع الحقيقة، وبالتالي فالذي يمتلك الحقائق هو ذلك الذي يملك تلك الآلات المدمرة، وفوق وجود هذه الآلات ذات الردع بأبشع أشكاله بما تيسره تقنياتها فإن هناك فلسفات تغذي هذه النزعة، والفلسفة البراغمية هي المغذي الفلسفي لهذه النزعات التي معها تتنامى الدعوة للهيمنة والسلطة، لكن السؤال المطروح هنا إذا كان المجتمع على استعداد بقبول من يقيمهم بوسائل تمثل قمة الانتهاك للأخلاقي لحقوق الإنسان، فهل هذا يعني أن المجتمع يمثل أيضا عائقا إلى جانب التحديات التي تعترض الدراسات الأخلاقية لمواجهة خطر التقنية المميت؟

إن المجتمع في حد ذاته قد يقف عائقا أمام الرؤى الأخلاقية الإصلاحية، ويضرب لنا راسل مثلا على ذلك انطلاقا مما حدث مع "سبينوزا"، فهذا الفيلسوف رغم جهوده الجادة في بناء فلسفة أخلاقية من خلال كتابه الأعظم "الأخلاق" إلا أنه تلقى ردود فعل عنيفة من طرف مجتمعه، وقد رافق ذلك اتهامات وصفت سبينوزا أنه شيطان آثم، ولم يتم نشر كتابه إلا بعد مئة عام تخللتها لعنات متواصلة ورفض شديد لتفكير سبينوزا الفلسفي، إن فلسفة سبينوزا الأخلاقية والسياسية تختلف عن فلسفة هوبز، لأنها تدافع عن حرية التفكير للإنسان بشكل أوسع، بل ويصرّ سبينوزا على طرح

مفاده أن الدولة لا يمكن لها أن تؤدي وظائفها دون وجود تلك الحرية وهو ما ركّز عليه في كتابه "دراسة لاهوتية سياسية"² (راسل، 1983، ص 194-195).

رغم تشديد سبينوزا على قيم كبرى سياسيا وأخلاقيا إلا أن السبب وراء رفض هذه القيم هو معارضته لوجهات نظر تخص العامة فيما يتعلق بالمقدس، وعلى الرغم من ذلك أيضا؛ فقد وُصِفَت فلسفته بسبب ذلك على أنها فلسفة تنافي الأخلاق لمجرد شكهم في مدى تدينه، فالمشكلة الحاصلة هنا تتعلق باعتبار أن الدين هو نفسه الأخلاق لدى العامة من الناس، ويجهلون أن الدين شيء والأخلاق شيء آخر، ونتيجة لهذه المغالطة تأسس مجتمع ضد الإصلاح وعلى الفلسفة اليوم محاربة هذا النوع من المغالطات.

2.2. اتساع نطاق السلطة و الإلحاح على ضرورة الإصلاح:

إن الإنسان بإمكانه أن يقوم بعملية تغيير، لكن قدرته على التغيير محدودة فقد يستطيع أن يغيّر ما على الأرض وبعض الأجزاء التي تحيط بها، لكن قدرته على التغيير المطلق محدودة بنسبية أفكاره، وهذا النوع من العجز هو الذي يبيث في أذهان الناس أنّ الأرض هي الكون كله، فهم لا يقبلون إلا فلسفة تتعامل مع سطح الأرض من منطلق ما يمكنهم فعله، وهذا ضرب من ضروب الجنون المدعو بجنون العظمة الذي تفاقم وازداد حدة بفضل التقنية العلمية متناسيا هذا الكائن العاجز أنه حتى في الأرض هناك من الأمور ما لم تُحط به قوته العقلية أو البدنية، فهناك أجزاء غامضة فالتة منه لحد الساعة (راسل، 1983، ص 62).

إنّ حب السلطة الذي يدفع الناس إلى تدمير غيره، يدمّر حتى تواضعه العلمي والمعرفي عموما، ذلك أن غطرسة الإنسان قد تجاوزت حتى حدود المعرفة الأرضية التي تتجاوز كل إمكانياته، ورغم ذلك فهو يصرّ على أنه قد قام بقهرها وفرض سيادته عليها بشكل كامل، لكن في حقيقة الأمر ربما لم ينل من نصيبه منها سوى الوهم أو معرفة قامت ببنائها فقط حواسه القاصرة، وفي هذه الحالة على الإنسان فعلا أن يتواضع حتّى في الأرض التي وُجد عليها وأن يلجأ إلى خيار أخلاقي فحواه التواضع العلمي بدل الإصرار على الدخول في عراك مع الطبيعة مدعيا قهرها وفرض

² في هذا الكتاب "دراسة لاهوتية سياسية" يتخذ "سبينوزا" وجهة نقدية مارسها على الإنجيل، ونقده ذلك هو ما عرف بعد قرنين من الزمان باسم "النقد الأعلى". (راسل، 1983).

سيادته عليها كما سبق وأن أعلنت ذلك الفلسفة الحديثة مع مؤسسيها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ من يدخل في صراع وحرب مع الطبيعة فالنتيجة ستكون محسومة من البداية لها فمن صارع الطبيعة صرعه.

لا يعني هذا أنّ الإنسان مقيد ومنفي الحرية أمام الطبيعة، إنه كائن له القدرة على التحرر، والتحرر لا نعني به العبث اللا أخلاقي في الطبيعة وبمصير المحيط الحي ولا سيما بمصير النوع الإنساني

إننا في مثل هذه الأوضاع التي يتفاقم فيها جنون السلطة على الإنسان والطبيعة مطالبون بالتماسك وأخلقة مؤسسات صنع القرار. لقد دافع راسل عن الحرية والتماسك الاجتماعي، وإنّ معيار نجاح المؤسسات الاجتماعية هو ما توفره من فرص للنمو، لكن واقعها البائس هو أنها عائق لكل هذا ومن خلالها تمارس السلطة استبدادها؛ وعليه فتورة التغيير تتجسد من خلال تغييرها. (شiche، والمسند، 1995، ص 220-221).

لقد عرف العالم في ظل تطور التقنية ظهور الإعلام كسلطة إلى جانب السلطة السياسية، وقد أدى هذا إلى اتساع نفوذ السلطة واتساع هيمنتها نظرا للقوة التي زدها بها الإعلام، فمثلا من الناحية النظرية يمكن الفصل بين المتنازعين بالرجوع إلى مصدر خارجي مستقل عنهما للحكم والفصل في الصراع، لكن بما أن الساحة العالمية الخصوم فيها من الأقوياء فإن قوتهم تجعلهم مستقلين عن أي تحكيم خارجي، وبالتالي فليس بالإمكان سوى الانتظار حتى ينتصر الأقوى وكثيرا ما يكون الإعلام عاملا حاسما، ولذلك فإن تحقيق السلام العالمي والداخلي سيعتمد على قوة إعلامية تبين خطأ تلك النزاعات وسلبياتها وخطر اللجوء إلى التدمير الذي قد يسببه سوء إدارة التقنية، لكن هذا لا ينبع إلا من رغبة المجتمع في حد ذاته، لأنه هو من سيقول هذه الكلمة، وبما أن الفلسفة البراغماتية تتماشى مع طرح حب امتلاك القوة، فإن هذا يعني وجود فلسفة أخرى لا تتوافق معها (راسل، 1983، ص 64).

امتلاك الاعلام هو امتلاك لسلطة إضافية وإن عالمنا المعاصر قد تحول إلى حلبة صراع الأقوياء وهي القوى المتناقضة كما ورد مع الفلسفات الهيجلية والماركسية، وإذا تعلق الأمر بسلطتين عظميتين في العالم فلن يكون بوسع القوى الأقل منهما شأنًا سوى أن تتصدى لحجم الكارثة التي من الممكن أن تنتج عن جنونهما الهدام.

إن الأمل الذي سيحسم الصراعات القائمة بين القوى الكبرى العالمية ربما تمثله القوة الإعلامية التي تتحكم في الرأي العام، والكارثة ستكون أضعافا إذا سارت في خيار التعقيم والحرب بدل الخيار القيمي الأخلاقي، وحينها سيكون على الفكر الإصلاحي أن يواجه ليس فقط السلطة السياسية بل عليه أن يواجه التلوث الإعلامي الذي برز مؤخرا، يشكّل الإعلام قوة وهو عدو شرس للخصم الذي توجهه القوة الإعلامية، وهذا العامل قد كان سببا فاعلا في انتصار الكثير من حروب الدول، ويكفي أن نشير هنا على سبيل المثال إلى انتصار الولايات المتحدة الأمريكية على الاتحاد السوفياتي، وحيال هذا الوضع فإنّ تحدي الإصلاح قد ازداد شأنه تعقيدا من ناحية، وسيزداد مع ذلك الإلحاح عليه أيضا لأن ذلك يعد ضرورة للحد من عبودية الإرادة فقد نشأت لتكون حرة حتى تبدع.

3.2. الوعي بقيمة السلم أولى من الوعي بقيمة العلم؛

لا عائق أمام الجنوح للسلم وإصلاح المجتمعات في العالم سوى نزعات البشر وأهوائهم الشريرة، فهم خصوم أنفسهم، ولتحقيق درجة أكبر من التقدم فعلى العالم بشرقه وغربه أن يتخلص من عدم الثقة المتبادلة بين الشرق والغرب، وهذا الأمر ستترتب عنه نتائج في مستقبلهما إما إلى الأسوأ وإما إلى الأحسن؛ وذلك مرتبط بطبيعة حكمتيهما وطبيعة العلاقات المتبادلة فيما بينهما (راسل، 2008، ص ص132-133).

لم تكن الحياة لتستمر على هذا الكوكب لولا نعمة الجهل والقصد هنا هو جهل السياسيين بأسلحة الدمار الشامل. هذا كان سابقا، أما اليوم فبعد أن أدركوا أصنافا متعددة من أسلحة الفتك التي بإمكانها أن تعيد الناس إلى فجر التاريخ بالقضاء على المنجزات الحضارية، فإنّ تعليق الآمال على العلم والتطور التكنولوجي الذي أنتج هذه الأسلحة الفتاكة لم يعد ممكنا، لذلك لا ضمان لرفاهية النوع الإنساني ولا ضمان لإبداعه إلا بالتمسك بالسلم، والطريق إلى السلام يكون من خلال جهد، والعمل فيه يتم على مستويات متعددة سواء تعلق بالإصلاح الاجتماعي أو السياسي أو التربوي، والخطوة اللازمة في سبيل ذلك هي تقوية دوافع الإبداع والبناء لدى الأفراد (محمد عويضة، 1993، ص ص 93-94).

إصلاح إرادة الإنسان وإصلاح إرادته العلمية على وجه الخصوص توجب استحالة فصل الأخلاق عن العلم، فحينما نتأمل على سبيل المثال العنوان الذي وضعه سبينوزا لكتاب له باسم "الأخلاق" فإننا سنجد أنه يذهب في ميتافيزيقاه إلى البحث في الطبيعة بشكل علمي، ثم يدرس الانفعالات وإرادة الإنسان وفعالياته العقلية، ليؤسس بعد ذلك نظريته الأخلاقية، وقد اعتمد في هذا الكتاب طريقة هندسية محاكاة لهندسة إقليدس فيبدأ بتعريفات ثم مسلمات ويؤسس نتائجه اعتماداً عليها (راسل، 1983، ص 62)

حسب سبينوزا فإن ما يعيق مساعي الفلاسفة في البحث عن تصورات ورؤى كاملة حول العالم هي انفعالاتهم، وعلى كلّ فإنّ أي فعل يقوم به الإنسان نابع عن إرادة حفظ الذات، وقد يبدو في هذا الأمر نزوع نحو الأنانية وميل الإنسان إلى مصلحته الشخصية، ولكن ليس هذا هو المقصود من وجهة نظر سبينوزا، فالإنسان حينما يتكون دافعه لا بد أن يتم في إطار ارتباط هذا الدافع بمطلب الوحدة مع الله، أي أنّ الإنسان الذي يقوم بسلوكياته وتصرفاته النابعة عن حفظ الذات لا بد أن تكون من زاوية رؤية الأشياء من منظور الأزل كروية لا زمانية (راسل، 1983، ص 64).

وبمدلول هذا الرأي فإنّ التهم التي كانت موجهة إلى سبينوزا هي في الأصل تهم مبالغ فيها إلى حد كبير، فسبينوزا أراد تصحيح علاقة الإنسان بربه، وليس إلغاءها خدمة للشيطان كما كان يتصور السذج من الناس، ورغم أن كتابه في الأخلاق هو بالأصل كتاب يتعلق بالقيم فهو لا يخل من التصورات العلمية، حيث ذهب إلى تشريح الملكات التي يملكها الإنسان أين يربط بين البعد المعنوي والمادي للإنسان، وفي ذلك إشارة منه على أنه رغم التركيب المعقد للبنية الإنسانية إلّا أنّ كل بعد وكل جزء منه تربطه علاقة بالجزء الآخر، وبالتالي لا مبرر للفصل بين العلم والأخلاق، وهذا ما أراد أن يفهمه "سبينوزا" للجميع، وهذا ما أراده "راسل" أن يفهمه لرجال السياسة والفكر على وجه الخصوص والعالم بأسره عموماً حتى يتأسس الوعي اللازم من أجل النهوض بإصلاح عالم النوع الإنساني، وإنّ مؤثر هذه النهضة الجديدة هو الوعي العالمي الكافي بقيمة السلام.

3. في حتمية الإصلاح:

أمام ما قيل سابقا حول الظروف التي تحول إليها العلم والعالم؛ فإنّ مسألة إصلاحهما حتمية لا بد منها وإلا صرنا جميعا أمام خطر حقيقي، فكيف يمكن ذلك؟ وهل فعلا تورط العقل العلمي في الأعياب السياسية؟

1.3. ضرورة إصلاح إرادة الفكر:

لا سبيل إلى تحقيق الرخاء المادي والثراء والراحة سوى السلام، هذا السلام الذي لا يتمناه كل من يعاني من اضطرابات عقلية لأنهم يريدون للبشر دوام الهلع والذعر، والذين هم مستعدون للعمل على هلاك الأمم بما أمدهم إياه العلم التقني في مجال التسليح من إمدادات نووية مدمرة. إن السلام الذي يحلم به راسل لا يقل عن ذلك السلام الذي تحقق في العصر الفيكتوري أين تراجع العنف وساد الرخاء في مجتمع بريطانيا، وبمقدار تراجع حدة الدعايات القومية العنيفة سيتحقق الكثير من التغير، وستراجع الحروب وسيتعلم الأطفال في المدارس كيف لا يكرهون ولا يحتقرون غيرهم من الأمم (راسل، 2008، ص 132).

إذن الإصلاح المتعلق بهذا الوضع لا يمس التقنية، لأنه الأولى من ذلك هو إصلاح الإرادة التي تحرك هذه التقنية والتي تعمل على توجيهها نحو الدمار، وتوجيه مختلف هذه الوسائل نحو السلام هو توجيه العلم والفكر الإنساني في عمومهم إلى ما فيه خير للبشرية، أي اختيار طريق الأخلاق التي تُكسب العلم رونقه الجميل الذي بدأ به والذي يعود به إلى أصله الأول الشريف، فالعلم لم يولد لأجل الحرب، وأساسه منذ البداية أخلاقي، لأنه مطلب الأخلاق لا مطلب الحرب، وعلى رجال العلم والفلسفة أن يمنعوا تحوّلهم من المطلب الأول إلى المطلب الثاني وهذا هو واجبهم الأول.

وأمام المحاولات المستميتة لإصلاح هذه الإرادة على وجه الخصوص ولإصلاح المجتمع العالمي فإن راسل في كتابه "أسس لإعادة البناء الاجتماعي" يتساءل عما يمكن فعله خاصة وأن الكثير من بني البشر قد بدؤوا يصابون بعجز وقلة حيلة أمام بؤس الحروب، فما السبيل إلى الإصلاح؟ وبعبارة أخرى "ماذا نستطيع أن نعمل؟" وللوصول إلى إجابة على هذا السؤال الإشكالي فإنه لا بد من الاعتراف أن العالم مليء بالشر، وبالتالي فإن هناك روحا غير صحيّة تسوده يجب تغييرها أو إصلاحها، وذلك لا يكون دفعة واحدة، بل يجب أن يكون على مدى مصحوب بصبر وشجاعة حتى يتحول

الوهن إلى حماس، وذلك من خلال بث الحياة في العقول لأنها هي المناطة بمهمة الإصلاح (راسل، 1987، ص ص181).

لا شك أن العلم والفلسفة كلاهما لا يأخذان بسوابق الأحكام، لأنها تشوه المعرفة الناتجة عنهما، ولا تحقق نتائج ذات أثر إيجابي أو أي نتائج تستند إلى الحجة والبرهان المنطقي، لكن تحامل بعض الفلاسفة على دراسات قوم من الأقوام بسبب الحروب وبسبب عداوة سياسية سيتسبب في تجاوز نمط فكري من شأنه أن يكون فعالا إذا ما تم دراسته وتحليله، وهذا ما حاول راسل أن لا يفعله مع فلسفة كل من نيتشه وهيجل على الرغم من الحروب التي كانت تدور رحاها بين ألمانيا وإنجلترا في وقت كان فيه سخط ونبذ للروح الألمانية في أوروبا بسبب شيوع بعض النزعات العنصرية التي تمجد الجنس الألماني مثل النازية.

كان من نتائج الحربين العالميتين اللتان خاضتهما إنجلترا ضد ألمانيا أثرا حتى في ميدان الدراسات الفلسفية، فكان من نتائج ذلك تولّد نفور من الفلسفة الألمانية من جانب الفلاسفة الألمان خاصة اتجاه أولئك الفلاسفة الذين كانوا يعتقدون أنهم مثّلوا سببا لتغذية الروح العسكرية الألمانية وتحفيزها على العدوان من أمثال: هيجل الذي كان يمجد الدولة البروسية ونيتشه الذي كان ينادي بإرادة القوة والصراع، وعلى الرغم من تمجيد هيجل للدولة البروسية إلا أن راسل قد أنصف فلسفته وأعطاهها حقها علما أن راسل قد عاصر الحربين العالميتين واتخذ منهما موقفا سياسيا ينم عن وعيه الكبير، وتناول نيتشه بقدر من التعاطف والفهم المعقول لفلسفته (راسل، 1983، ص 10).

إن التصور الماركسي للحرب أقل حدة من تصور هيجل، لأن ماركس يرى في الحرب أداة مؤقتة فقط، وهي سبيل لحل مشكل التفاوت بين الطبقات الاجتماعية داخل المجتمع، وبانتهاء هذا التمايز تنتهي الحرب وحينها لا يكون هناك أي جدوى منها فيزول مبررها، لأنه لن يكون هناك أي خيار سوى السلام بعكس هيجل الذي يرى فيها منطق الوجود الدائم، بل وبناء على مبدأ حتمية الحرب أسس مجمل فلسفته العامة التي تسير نفس الشكل الهيجلي، لقد كان لتلك الحروب أثر في تغذية الأحكام المسبقة وتفكك أصالة الفكر، ولذلك فإن الفكر الذي يعتمد على مثل هذه الأحكام إنما هو فكر ذو إرادة أشد حاجة إلى الإصلاح، خاصة بعد تورط العقل العلمي في الأعباء السياسية.

2.3. تورط العقل العلمي في الحروب والأعيب السياسية:

لا بد أن نتحدث عن وجود علاقة بين العلم والحرب مادام العلم صار فاعلا رئيسيا فيها، ذلك أن الحروب عبر تاريخها استعانت بالعقل العلمي، وأولى تلك المحاولات حسب راسل كانت مع "أرخميدس" سنة 202 ق.م، والذي قدّم يد العون لابن عمه "طاغية سيراكوزا" ضد الرومان، لقد اخترع "أرخميدس" العديد من الأسلحة والتي ذكرها بلوتارك في كتابه "حياة مارسيلوس"، وبالرغم من مقتل أرخميدس ورغم انتصار الرومان آنذاك، إلا أن التقنية العلمية استمرت في تغذية الحروب. إن العلم في الميدان الحربي ساهم في تدمير أنظمة وهزيمة جيوش وانهيار دول وبروز أخرى، وإن هذا ما يحدث للعلم إذا وضع نفسه في خدمة الحروب التي تشنها أطراف سياسية، والتاريخ يخبرنا عن الكثير من رجال العلم مثل رجال النهضة الأوروبية الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الحكام، فليوناردو دافينشي حينما أراد استحصا عمل أرسل رسالة إلى ملك ميلانو متحدثا فيها عن ما توصل إليه في فن التحصين من تطور، ولم يذكر إلا عبارة عابرة حول كونه يجيد فن الرسم، ونفس الأمر لما حدث مع غاليليو حينما تقرب من دوق توسكانيا (راسل، 2008، ص107).

حينما يتقدم العلم عن وعي وطوعية لتغذية الحروب فإنه يتحول إلى شريك في الجرائم والويلات التي ستنتج، ويصبح العقل الإنساني الذي أنتج العلم آثما بعد أن كان شرفا للإنسانية، ويتفاقم الإثم إذا ما ترافقت معه أنانية لا تراعي مصالح العامة، إن جنون الإنسان في استعمال التقنية يفضي إلى كارثة؛ والكارثة ستفوق الخسائر إذا نظر إليها على أنها مجرد أرقام إحصائية.

لقد ازدادت هيمنة العلم بما حققه من اكتشافات، وبدلا من أن يحل أزمات المجتمع فقد صار سببا في خلق أزمات اجتماعية وأخلاقية، لكن القوة التي يمنحنا إياها العلم نحن من يملك سلطة عليها، لأننا نحن من يوجهها لإحدى هذين الطريقين: فإما إلى طريق الخير، وإما إلى طريق الشر، كما أن الفعالية المدمرة للأدوات التي أنتجتها الاختراعات العلمية جعلت من نتائج العلم أشد خطورة، فهل يعقل للإنسان أن يصنع عدوه بنفسه، وأن يتسبب بتوفير أسباب فناءه بشكل مدمر؟ إننا بذلك قد ابتعدنا بفارق كبير بشناعات حروبنا المعاصرة عن حروب الأزمنة الإغريقية: أين كانت أفضع الجرائم التي من الممكن أن يأتي بها الإنسان هي مجرد قطع أشجار من الزيتون. (راسل، 1983، ص ص195-196).

إنّ هذا ليعكس بوضوح مدى تجاوز الحروب المعاصرة في تدميرها للحروب التقليدية، ومع شدة تلك الحروب تبينّت قسوة الإرادة الإنسانية التي صارت ميّالة أكثر إلى اللاعقلانية بمعناها السلبي.

ستكون المعرفة في المستقبل قوة لم يمتلك البشر مثلها من قبل واستخدامها إما أن يعود بالنفع أو الضرر على العالم، لذلك يتوجب تجاوز منطق سعادة الأقلية على حساب شقاء الأكثرية لأن هذه المرحلة سيكون قد عفى عنها الزمن، ولن يرضى أحد في المستقبل أن يكون تعيشا حيث سيسود منطق أنّ سعادتنا تتوقف على سعادة الغير، وهذا الأمر الإيجابي لن يتحقق إلا إذا كان العالم شبيها بالأسرة الواحدة، وحينها سيكون أروع من أي عالم آخر قد عرفه الكون، وهذا يوجب على كل واحد منا ميلا قويا نحو السلام والانتصار له أكثر من الانتصار لأي لعبة سياسية (راسل، 1961، صص 60-61).

3.3. الإصلاح نزوع نحو السلام العالمي:

لقد كان راسل خصما للفاشية، ويذكر عبد الرحمان بدوي عن راسل أنه كان ممجدا للحرب فترة من الزمن أين تخلّى عن نزعته نحو السلام واستمر في دعوته للحروب حتى مع الحرب العالمية الثانية، بل وكان يدعو الولايات المتحدة الأمريكية إلى ضرب روسيا بالقنابل الذرية خاصة مع صدور كتاب "في مدح البطالة ومقالات أخرى" سنة 1936م، لكنّه عاد سنة 1949م إلى نزعته نحو السلام وأرسل رسالة إلى كبار قادة العالم السياسيين يدعوهم فيها إلى التخلي عن الحروب والوقوف ضدها، وأسس مع سارتر محكمة ضد مثيري الحروب التي كان يقصد فيها بالدرجة الأولى الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت متورطة في حربها ضد الفيتنام (بدوي، 1984، ص519).

إن إمكانية النقد لا تكفي، بل المهم أن تكون للذات الجرأة على الاعتراف بما آل إليه وضع العلم في علاقته مع الحرب، وفي وضعه مع إقصاء البعد الإنساني في مضمونه، حينها فقط يكون العقل قد تمكن من التحكم في الغرائز، وحينها يكون المرء سيّد نفسه، لأن سلطة الغريزة على الذات تولّد إذا تعاضمت نزعات أكثر ميلا إلى الحيوانية، وهذا ما يبرّر الحروب التي تحرّكها غرائز عدوانية لا تعرف عن معنى الإنسانية شيئا سوى اسما فارغا من أي محتوى نأمل فيه صلاحا للعالم.

نظرا لما حمله التاريخ من أحداث كارثية ومجازر دموية فإننا نجد لغة الخطاب السياسي والعلمي اليوم تميل إلى الجنوح للسلم حتى وإن كان ذلك الخطاب شكلا لا يعبر عن مضمونه الحقيقي، فعلى اختلاف أنماط تلك الخطابات السياسية فإن لغتها تعكس تخوفاً من نشوب حرب عالمية ثالثة لا يتصور عقل بشاعة نتائجها، ولما كانت اللغة الرمزية سببا في ظهور برامج تقنية سببت دمارا وهلاكاً للإنسانية، فإنها اليوم مطالبة بأن تكون أكثر أخلاقية وأكثر وظيفية فيما يخدم الإنسان لتحقيق مشاريع السلم العالمي التي دعا إليها أغلب أهل العلم والفلسفة، وأكثر بعدا عن الحروب وعن انتاج آلات الموت.

إن الفلسفة هي أحد تلك المحاولات التي يهدف الإنسان من خلالها إلى اقتحام الواقع وليس المثل المفقرة لما هو معيش، والهدف من وراء ذلك هو الوصول إلى الحقيقة، فالفلسفة محاولة استثنائية للوصول إلى حقائق الأمور، وبعبارة أخرى حقيقة الواقع من خلال تفحص عيوبه، إنها تعمل على كبح الغموض، والحد من غرور الإنسان، وتبديد أي تناقض (Russell, 1951,P01). إن في هذه الكلمات مفتاح لنا ولعالمنا، فحقيقة ما نريده من أنفسنا في العلم ليس أكثر من السلام، وليس أكثر من روح بريئة كبراء الأطفال وإننا سنقترب أكثر من مثل هذا الطموح إذا جرمنا كل الجرائم ضد الإنسانية فعلا لا مجرد قولاً.

4. برتراند راسل: امتدادات الطرح ونقده والحلول:

إن الطرح الذي عالجناه على ضوء منظورية راسل ليست بمعزل عن أطروحات فلاسفة آخرين، مثل هايدغر في فلسفته الوجودية أو مدرسة فرانكفورت، إن الأزمة التي نتجت عن تطور التقنية بدءاً من تشيؤ اللغة إلى انتهاكات الإنسان قد مست العالم خاصة الحضارة الغربية التي تعد أكثر الحضارات تفوقاً وتطوراً عبر العصور، بل وفي عالمنا المعاصر، والاشتراك في نفس الشعور بالأزمة شكل عاملاً لامتداد أطروحة راسل، وإن الأطروحات الناتجة عن هذه الأزمة ستساعدنا في فهم أطروحة راسل أكثر، غير أن هذه المحاولات لا تخل من نقد، وبناء عليها سيكون بإمكاننا مقارنة الحلول التي من شأنها أن تقلل من حدة تحديات عالمنا جراء مشكلة التقنية، فما وجه الرؤية التي حملها نموذج مدرسة فرانكفورت عامة -وهابرماس خاصة- على اعتبار أنها

مثلت فلسفة جوهرها الاهتمام بالإنسان ضد التشيؤ وهيمنة التقنية؟ كيف يمكن مواجهة التحديات التي تطرحها هذه الأزمة في عالمنا المعاصر؟

1.4. امتدادات أطروحة راسل "مدرسة فرانكفورت نموذجاً":

يمكن القول بشأن النقد الذي وجهه راسل للعقل العلمي على أنه نقد يتوجه بالدرجة الأولى إلى العقل التنويري الأوربي، وإنّ هناك العديد من النماذج الفلسفية التي رأت أنه من الضروري إصلاح الإرادة العلمية والاجتماعية. إنّ أهم فلسفة سارت في نفس السياق الذي قدمه راسل سابقا هي فلسفة مدرسة فرانكفورت حيث مارست نقدا اجتماعيا ونقدا للعقل الأداتي ولتشيؤ الإنسان.

لقد توجهت هذه المدرسة بالنقد للعقل التنويري الأوربي بحكم كونه رمزا للحدثا، وهذا ما عملت عليه منذ نشأتها في ثلاثينيات القرن العشرين من خلال أعلام بارزين مثل: **أدورنو وهوركهايمر**، لقد قامت اللحظة التأسيسية للحدثا الغربية على جملة من المبادئ أهمها: الحرية، كرامة الإنسان، العدالة، احترام الحقوق، وكلها مبادئ تتفق في كونها تبتغي خلاصا للإنسان من الظلم والطغيان، خاصة الاستبداد الكنسي والسياسي، لكن التطور التاريخي للأحداث الذي شهدته أوربا برهن على وضع يخالف هذه المبادئ، حيث ابتعد المشروع التنويري عن المبادئ التي قام عليها، وهنا أيقن بعض هؤلاء الفلاسفة من أمثال **هابرماس** أن الحدثا مشروع لم يكتمل. إنّ العقل الأوربي رغم تطوره لم يحرر الإنسان بل مازال يسجنه في تهديدات أضحت تهدد وجوده، فحسب كل من **أدورنو وهوركهايمر** فإنّ العقل السائد يتسم بنزوعه نحو التقنية وهذا جعل منه عقلا أداتيا، وتحول بسيطرته من الطبيعة إلى ممارسة السلطة على الإنسان، فصار التعامل مع الفكر تعامللا رياضيا (بومير، 2010، ص 11-13)، بل وحتى اللغة، لقد أفرغ الكل من محتواه وقيمه، وصار مشيئا؛ فصارت لا فائدة منها إلا إذا كانت تخدم العقل الرياضي، وإذا لم تكن اللغة تخدم العلم التجريبي أو الرياضي، حينها توجه نحوها سهام النقد بالحكم عليها على أنها ميتافيزيقا فارغة من المحتوى، أو أنها نسبية وقاصرة أو عاجزة على استيعاب ديمومة الفكر، فتحول المنطق من لغة الألفاظ العادية المرنة والطبيعية والإنسانية إلى لغة جامدة رمزية ووصفو شكله الجديد بالفكر المتطور لأنه صار يعتمد رموز الرياضيات، وصار رقي اللغة مرتبطا بإنتاج الآلة، فصارت في خدمة عالم الحواسيب والتقنية عموما.

لا ينفصل العمل الإصلاحي عند راسل عن النقد، وهذا بالفعل ما مارسه على العقل العلمي و الإرادة الإنسانية التي أساءت استغلاله، وهو نفس الأمر الذي نجده مع هابرماس، فالعمل النقدي عنصر تتشكل داخله اليوم هوية المجتمع العالمي بأكمله، وفي نفس الوقت إنه يتوجه بالنقد نحو الموضوعانية والرايكاكية ومقاومة الأيديولوجيا الوهمية (هابرماس، 2002، ص229). إنَّ نقد العقل عموما يمثل نقطة الانطلاق التي يبدأ منها هابرماس لإعادة تأسيس خطوات جديدة لقول فلسفي في الحداثة الغربية، وإنَّها لحداثة من الضروري أن تأخذ بعدا جماليا لأنها تتقاطع مع القول الجمالي، (هابرماس، 1995، ص 05-06)، إننا بحاجة إلى حياة ذات طابع جمالي تكسر عن الحياة السائدة التشيؤ الذي قيّدنا، إنَّها حياة يصفها هابرماس بقوله: " أضحت مشيئة ومستغلة، موضوعة تحت تصرف التقنية أو منتشرة بشكل كلاني، خاضعة للسلطة، مجانسة أو سجيئة، فإن وراء هذه الاتهامات على الدوام دافع حساسية خاصة ذات جروح معقدة وأشكال مصعّدة من العنف" (هابرماس، 1995، ص 516).

يتضمن القول السابق مشكلة تمثل جزءا رئيسيا في أزمة عالمنا المعاصر، إنها أزمة الحرية التي ابتلعتها التقنية لصالح السلطة، إنَّ التقنية بهذا المعنى صارت سجنا يحبس طموحات الإنسان وتفاؤلاته في عالمه، خاصة تفاؤله بالفائدة التي كان يريها من تطور العلوم إذا ما تقدمت حضارة العالم الأوربي، إنَّها لا تسجن الفكر ولا تقمع الإنسان معنويا بل تقيّد وحتى جسده فحاولت العبث به، إنَّ الرهان في الفلسفة المعاصرة مع كل من مدرسة فرانكفورت وراسل وغيرهم من الفلاسفة المعاصرين هو رهان الكفاح من أجل الحرية وفرض سيادة الإنسان على السلطة والتقنية حتى تكونان آليتان أقل عنفا وأكثر مصالحة مع القيم.

إنَّ مدرسة فرانكفورت بالأساس قد تأسست كحركة نقد فلسفي واجتماعي، وبداية مشروعها النقدي كان مع تأسيس معهد العلوم الاجتماعية وممارسة أنشطته سنة 1923، وحاول روادها بناء نظرية نقدية اجتماعية قامت على التحليل الاجتماعي خاصة تحليل المجتمع الرأسمالي، فتوجهوا إلى قضايا خلاصتها أنَّ الإنسان المعاصر يعيش أزمة اجتماعية يعاني فيها من فقدان لقيّمته الفردية وهو بصدد علاقة مع تقنية تمارس قهرا عليه، ومن وظائف المجتمع المعاصر وتحدياته الماثلة أمامه هي تصحيح مسار هذه العلاقة بتصحيح طبيعة العلاقة بين الإنسان والتقنية، فتكون

علاقة طبيعية لا يفقد فيها الإنسان كرامته ويشعر بالطمأنينة حول مصيره في الوجود، وعليه فإن النقد الفلسفي عند هذه المدرسة انصب على تغيير الوضع الاجتماعي وتجاوزه. (بومير، 2010، ص 39-41).

إن نقد العقل الآداتي ونقد التقنية كما هو الحال عند راسل لا ينفصل عن النقد الاجتماعي، ومن هنا تنشأ علاقة تكاملية بين الإصلاح العلمي والاجتماعي على اعتبار أن للعلم انعكاسات على المجتمع وللتقنية تأثير على حياة الإنسان الطبيعية أكثر شيء. إذن فمن الطبيعي أن تحتل التقنية اليوم حيزاً كبيراً من التفكير العلمي والفلسفي، ومن المهم أن ننظر إليها على أنها مشكلة فعلاً وأزمة إذا كانت سلطة علمية قاهرة بيد سلطة سياسية قاهرة، فكما أن المشكلة تأخذ بعداً علمياً فهي تأخذ بعداً سياسياً اجتماعياً، وهذا يستلزم إرادة إصلاحية تجمع بين إرادة العلم وإرادة المجتمع.

2.4. نقد أطروحة راسل:

لقد كان أمل زكي نجيب محمود من راسل أن يأتي بدائل تؤسس لنظام بديل يخلص العالم من المآزق التي تورط بها، لكنه حسب رأيه اكتفى بالنقد فقط دون الاتيان بديل، لقد اكتفى بوضع كل آماله على العلم فقط في حين أن السلطان في المستقبل سيؤسس سلطته على ما ينتجه العلم أكثر، وهو بحد ذاته يتوقع أن تسود العلمية في مجتمعاتنا المستقبلية (محمود، د.ت، ص128).

إن هذا التناقض يجعلنا نتساءل: هل من الصواب أن نثق بالعلم مجدداً؟ هل هو بالفعل يفكر في مصلحة البشرية؟ لقد نتج عن العلم تطورات تقنية هائلة أنتجت الخراب ومن الصعب على العلماء في عالمنا المعاصر أن يصححوا الكوارث التي تسبب بها، إن الواقع العالمي المعاصر يثبت أن آلة الموت لم تتوقف وإرادة الهدم فاقت إرادة البناء، وإن تأملنا للساحة العالمية يطلعنا على تهافت نحو التسلح أكثر من الجنوح نحو السلم، يبدو أن الإنسان لم يقبل حقيقة ضعفه والمخاطر التي تهدده جراء أعماله المخالفة للحكمة.

لم يلتفت راسل بصدد إصلاحه للإرادة العلمية ولوضع المجتمع العالمي إلى أن السلام العالمي ليس سلاماً بين الإنسان والإنسان فقط، وإنما هو سلام ينبغي أن يكون أوسع من هذا بكثير، لقد تناول راسل فكرة السلام من منظور ضيق أهمل فيه

الطبيعة، والسلام مع الطبيعة يكون من خلال احترام قوانينها الكونية، فالعبث مع الطبيعة عبث بحياة الإنسان في حد ذاته، ومن صارعها صرعه، وهذه المسألة تحيلنا إلى أنَّ الأخلاقيات المطلوبة كحتمية في الإصلاح تشمل أخلاقيات البيئة أيضا وهي أخلاقيات محتواها احترام الطبيعة وقوانينها، فصحيح أنَّ راسل قد أشار إلى ضرورة احترام الموارد الطبيعية لكن رهانه ظل في النهاية منصبا على العلم وحده دون الطبيعة (معلوف، 2010، ص100). إننا لسنا بحاجة إلى علوم فقط وإنما بحاجة إل عقد مصالحة بين ثلاثية: العلم، الإنسان، الطبيعة. فالطبيعة مجال واسع لإمكانات متعددة ولأنشطة العلم والإنسان، إنها مجال يجمع تلك العلاقة الثلاثية ومن الممكن احتوائها وفق قوانينها؛ والعلم أداة موقعها الطبيعي هو خدمة الطبيعة والإنسان على وجه الخصوص، ومجال وظيفة الإنسان في كليهما يكون بالاستعمال الأخلاقي لكليهما، فيستغل العلم للبناء والطبيعة حتى تكون فضاء يحمي بقاءنا، والرابط الذي يحمي هذه العلاقة لتسير بشكل سليم هو رباط الأخلاق.

3.4. الحلول والآفاق:

إنَّ الحلول التي يقدمها راسل تعتمد على العلم لكن ليس العلم الفارغ من محتواه الأخلاقي، بل العلم المحاط بسور القيم. (محمود، د.ت، ص129). وإنَّ تجاوز أزمات العالم ممكن في حال نشوء حكومة عالمية موحدة تقوم بحفظ السلام في العالم، وستمكنا من تجاوز جنون الإنسان، كل العالم تحت لوائها ولها الكثير من الصلاحيات التي تتجاوز صلاحيات هيئة الأمم المتحدة، وإنَّ دول العالم لا يجب أن تتمتع بالسيادة المطلقة، فهذه السيادة ملك للحكومة العالمية الموحدة، وهي حكومة الجميع، والقول بحكومة عالمية موحدة لا يعني حكومة تتقوقع على أيديولوجية أو ثقافة واحدة، إنها ليست حكومة ضد التنوع بل إنها تشجع عليه وتقبله، لا ترفض التمايز الثقافي المميز لكل دولة، وإنَّ التمايز لا يكون مرفوضا إلا إذا أخذ الاختلاف وجهة قومية، لأنَّ ذلك هو سبب اندلاع الحروب والعنصرية بين الناس، وعليه فإنه من الواجب على هذه الحكومة إلى جانب أخذها بالعلم أن تربي النشء على قبول الآخر المختلف. (محسن، 2003، ص ص 07، 87).

إنَّ الغرض من هذه الحلول التي أرادها راسل هو تكوين مجتمع علمي عالمي قوامه العلم والمشاركة بين جميع أفراد العالم، وفيه تنعكس أسى تطورات الوعي

البشري في أفكاره وآلياته وسبل التعامل مع الأزمات، حيث ترتقي الكرامة البشرية وتضامن بسياج من القيم يجعل من الإنسان أقدم موجود، فيكون المساس بحرياته وقداسته جريمة تستحق العقاب العادل الذي تشرف عليه هذه الحكومة. من خلال هذه الحكومة ستتجلى سلطة الجميع، وسلطتها ليست تمثيلا لسلطة الفرد بل إنها تمثيل لسلطة الكل المحاط بقيم من الأخلاق التي تحميه.

لقد أخذت المدارس الفلسفية مثل مدرسة فرانكفورت بعدا شبيها لهذا البعد من الحلول، ونجد على سبيل المثال "هابرماس" الذي أكد على الطابع التشاركي بين البشر وإزالة العوائق التي توسع في الاختلافات الهدامة. إن المشاركة التي يطمح إليها هي المشاركة الواعية بين الأنا والآخر، ومن خلال هذه المشاركة يكتمل النوع البشري، ومن خلال ذلك يستطيع هذا النوع إعادة إنتاج ذاته في نمط ثقافي واجتماعي ممتاز، وفوق هذا فإن عملية البناء لا يجب أن تنفك عن عملية النقد الذاتي فالنقد يُكسب اللاوعي وعيا، ويجعل محاولاتنا ثرية بالنتائج المفضية إلى حلول لأزماتنا فضلا عن كونه يغير من محددات الوعي الخاطئ. (هابرماس، 2001، ص ص 391، 395).

من هذا المنطلق فإن إرادة إصلاح أزمة العالم المعاصر لا تنحصر في بحوث علمية جوفاء بل في إرادة اجتماعية قوامها التواصل والعيش المشترك بين الذات، إنه تعايش يقوم على سيادة القيم والنقد من أجل البناء، ومن خلالهما نبني إرادة إصلاحية لمجتمعاتنا ولتوظيف العلم فيها توظيفا يرى في الإنسان إنسانا.

خاتمة ونتائج الدراسة:

من خلال الحركة الصناعية للتقنية تطورت العلوم، لكن نشأت أزمة التقنية في الحضارة الغربية المعاصرة مخلفة وراءها مآسي وحروب، فنشأت أزمة قيم تشيئ معها الإنسان.

وعليه فإنه خلال ما ورد في هذه الورقة البحثية نصل إلى النتائج التالية:

- أخلة العلم والتقنية حتمية ضرورية لبناء مجتمع إنساني أكثر إصلاحا.
- الإصلاح يقتضي إرادة اجتماعية وعلمية، ومسار الإصلاح هو التقيد بالقيم التي ترى في الإنسان موجودا يستحق الاحترام والحفاظ على كيانه.

- من الضروري تصحيح العلاقة الثلاثية بين: الإنسان، العلم، الطبيعة حيث أن لكل عنصر في هذه الثلاثية أخلاقياته التي يجب احترامها في سيرورة حركة بناء العالم.
- الحفاظ على السلام في العالم وانتشار مشاعر نبذ الحرب هو القوة الإيجابية في الحياة، وهي أفضل من قوة العنف.
- حركة بناء العالم تتم بإشراف حكومة عالمية موحدة، وأهم استراتيجياتها الدفع بالعلم المحاط بالقيم، وأفضل خطاب للدفع بهذه الحركة هو الخطاب القائم على النقد الذي يشمل: نقد المجتمع، العلم،... الخ.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المراجع باللغة العربية:

1. راسل، برتراند. (1987). *أسس لإعادة البناء الاجتماعي*. ترجمة: إبراهيم يوسف النجار. بيروت: المؤسسة الجامعية.
2. راسل، برتراند. (2008). *أثر العلم في المجتمع*. ترجمة: صباح صديق الدمولوجي. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
3. راسل، برتراند. (2009). *بحوث غير مألوفة*. ترجمة: سمير عبده. دمشق: دار التكوين.
4. راسل، برتراند. (1961). *محاورات برتراند راسل*. ترجمة: محمد عبد الله الشفقي. د.ب.ن: الدار القومية.
5. راسل، برتراند. (1983). *حكمة الغرب، ج2*. ترجمة: فؤاد زكرياء. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
6. بومنير، كمال. (2010). *النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى ألكس هونيث*. الجزائر: منشورات الاختلاف.
7. هابرماس، يورغن. (2002). *بعد ماركس*. ترجمة: محمد ميلاد. سوريا: دار الحوار.
8. هابرماس، يورغن. (2001). *المعرفة والمصلحة*. ترجمة: حسن صقر. ألمانيا: منشورات الجمل.
9. هابرماس، يورغن. (1995). *القول الفلسفي للحدث*. ترجمة: فاطمة الجيوشي. سوريا: منشورات وزارة الثقافة.

10. محمود، زكي نجيب، (د.ت). برتراند راسل. مصر: دار المعارف.
11. محسن، نجاح. (2003). *الحكومة العالمية عند برتراند راسل*. مصر: دار الفتح.
12. معلوف، حبيب. (2010). *إلى الوراء، في نقد اتجاهات التقدم*. لبنان: دار الفارابي.
13. عويضة الشيخ كامل محمد، محمد. (1993). *برتراند راسل فيلسوف الأخلاق والسياسة*. لبنان: دار الكتب العلمية.
14. شiche عبد المجيد، عبد التواب، وشيخة، عبد الله المسند. (1995). *برتراند راسل فيلسوفاً ومصلحاً ومربيًا*. حوليات كلية التربية، العدد 12، قطر.
15. بدوي، عبد الرحمان. (1984). *موسوعة الفلاسفة* (ج1). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

أولاً: المراجع باللغة الاجنبية:

16. Russell, Bertrand. (1951). *An outline of philosophy*. Britain: R. & R. CLARK & LIMITED Edinburgh.
17. Russell, Bertrand. (2005). *Authority and individual*. London & Newyork: Rotledge and Taylor & Francis e-Library.